الفصل الرابع

طبقات الأولياء ومقاماتهم

بعد أن خبرنا فيما سبق طرق الولاية ومسالك الأولياء، وعرفنا خطوات كل سالك ، ومعالم كل مرحلة ، نستطيع الآن أن نقسمهم إلى مراتبهم وطبقاتهم تبعًا لذلك .

ولما كان التوحيد خروجًا من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، وهو بهذا الاعتبار قربة إلى الله على قدرها ، فقد اعتبره الترمذي أول منازل القربة ، لكنها قربة عامة ، وليست قربة الأولياء ، فالمؤمنون الذين جاوزوا درجة الكفر ولم يتخطوا بعد مرحلة جهادهم لأنفسهم،والعزم على تسليمها لربهم، هم المخلطون الذين يخلطون عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، فإذا جاوزوا ذلك إلى حفظ جوارحهم عن المحرمات ، وقصرها على الطاعات ، طمعًا في الثواب أو خوفًا من العقاب ، فذلك هو مقتضى الإيمان وأولى مراحله ، وليس لهؤلاء ـ على ما بيناه ـ في طبقات الولاية الخاصة بشيء ، أما بعد ذلك فتبدأ المراتب والطبقات ، يقول الحكيم[1] « أول منازل القربة الإيمان بالله ، فهذه قربة العامة » و« أهل مراتب الدين لهم أولوية ، وأهل التخليط لا مراتب لهم ولا ألوية »[2] و« كلمة لا إله إلا الله لازمة للخلق الاعتقاد بها قلبًا ، والاعتراف بها نطقًا ، والوفاء بها عملاً ..... فإن أقامها خرج من الظلم ، وهو من الميطعين لديه ، ثم لأهل الدرجات فيما وراء ذلك سعي إلى الله بالقلوب »[3].

---

(١) منازل القربة ص ٨ ب .

(٢) مسألة لأهل مراتب القيامة ص ٥٧ .

(٣) شفاء العلل ص ١ ب .

وأول طبقات الأولياء هي طبقة الصادقين ، تتلوها طبقة الصديقين ، فطبقة المقربين ، ثم طبقة المنفردين .

وتتصل هذه الطبقات بسلسلة من المقامات ، بحيث لو صرفنا النظر عن أسوار الطبقات لوجدنا التسلسل في هذه المقامات يسلم من حلقة إلى حلقة ، أو من مقام إلى مقام ، من أول مقام من مقامات الأولياء حتى نصل إلى منتهى هذه المقامات ؛ لكن هنالك اعتبارات خاصة تميز كل مجموعة من هذه المقامات ، بحيث يمكن جعلها مقامات لطبقة خاصة من هذه الطبقات ، أو إن شئت فقل : هناك اعتبارات خاصة تجعل كل طبقة من هذه الطبقات تتميز بنوع من أنواع هذه المقامات .

فقد عرفنا أن الصادقين هم الذين اتجهوا بكل مجهودهم لكي يبذلوا نفوسهم خالصة لربهم ، فحرموها كل مشيئة وكل إرادة ، ابتداء من مشيئة الحرام إلى مشيئة الطاعات ، وظلوا هكذا يقيدون نفوسهم في انتظار ما يخرج لهم من المشيئة الإلهية وهذا الجهد الذي يبذلونه ليس جهدًا بدنيًا ، ولكنه جهد قلبي بالدرجة الأولى ، هو سعي إلى الله بالقلوب يقطع فيه مرحلة بعد مرحلة ، ويزيل فيه من عقاب نفسه عقبة بعد عقبة ، ويعالج من عيوب النفس وآفاتها ما يزيل عنها شعور التملك والاقتدار ، ويطبعها بطابع الذل والافتقار ؛ فإذا بلغ منه الجهد ، ولم يستطع أن يصل إلى مبتغاه استغاث بربه استغاثة المضطر ، ودعاه ليكشف عنه السوء ، فإذا رحمه ربه ، وأجاب دعاءه ، نقله في طرفة من محل الصادقين ببيت العزة إلى محل الصديقين بالبيت المعمور ، في عساكر حول العرش ، فهذه طبقة الصادقين ، والمراحل التي يجتازونها هي المقامات الخاصة بهم .

فإذا انتقلوا إلى محل الصديقين ، فهذه طبقة أخرى ذات سمات ومراتب أرقى ؛ وهى مع ذلك لم تتحرر كلية من آفات النفس ، ولكنها وضعت في حراسة الحق ، يحول بينهم وبين نفوسهم ، بعضهم بشرط وفائه في لزوم المرتبة وعدم مغادرتها إلا بإذن ، وهؤلاء أولياء الصدق ، والبعض الآخر

بغير شرط ، وهم أولياء المنة ، الذين اجتباهم الله بمشيئته ، وجذبهم من نفوسهم جذبًا .

حتى إذا أصبحت نفوسهم سلمًا ، ولم يعد فيها منازعة ، بعد أن قطعت ما قدر لها من مقامات ، أصبحوا من المقربين ذوي المجالس . وعلى قدر قوة اليقين ، ونفاذ الإيمان ، تتفاوت الأنوار ، وتتفاوت الحظوظ ، حتى يكون أكثرهم حظًا ، وأقربهم قربة ؛ وأصفاهم قلبًا ، هو الذي ينال مجالس المنفردين في ملك الملك بين يديه يناجيه كفاحًا ، ويلج مجلسه سماحًا ، فهو من المقربين المنفردين .

والعامل المشترك بين هذه الطبقات كلها مع اختلاف مقاماتها هو عقدة الإيمان ، واتجاه النية والإرادة ، فهي التي تستتر وراء كل عمل ، وتعطي له قدره وقيمته ، وتهيئ له محله ورتبته ، ويروي الحكيم - بصدد ذلك - عن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال : « لما بعثني رسول الله ﷺ اليمن قلت : أوصني يا رسول الله . قال : أخلص دينك يكفك القليل من العمل »[1] فبعمل الأركان تنال الجنة ، ولكن درجاتها ومراتبها لا تنال إلا بسعي القلوب وأعمالها ، ودرجات الجنة ليست إلا مظهرًا من مظاهر الثواب لدرجة القلب في سعيه إلى الله ، « فإنما ثقل وزن هذه الأعمال لا باشتغال الأركان بالأعمال ، ولكن باشتغال القلوب بأعمال الأركان ، كيف تعملها لولي الأعمال »[2] ، ولذلك تتفاوت مقامات الأولياء ، وتتفاوت طبقاتهم ، على الرغم مما يبدو من أعمالهم وسلوكهم « فكلما ازداد القلب استنارة بما عقد كان النطق به أنور ، وعند الله أعظم خطرًا وقدرًا ، وكان الوفاء به أرضى وأخلص ، وفي الميزان أثقل »[3].

(١، ٢) شفاء العلل ٢ أ .

(٣) المصدر السابق ص١ ب .

ولو أننا نظرنا إلى محمد ونوح عليهما الصلاة والسلام لوجدنا أعمال محمد ﷺ في عمره القصير تقل في جنب أعمال نوح عليه السلام في عمره الطويل ، ومع ذلك فمحمد هو خاتم الأنبياء الذي اختصه الله بما اختصه به من الفضل ، وليس ذلك راجعًا للعمل بقدر ما هو راجع إلى القلب ، ولذلك رجح أبو بكر الأمة بما وقر في قلبه ، ثم رجح عمر من بعده بمثل ذلك « ومن يعقل هذا عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا من فتح الله له طريق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ..... عن بكر بن عبد الله قال : لم يفضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صوم ولا صلاة ، وإنما فضلهم بشيء كان في قلبه ..... وعن مبارك بن الحسن : إنما غلبهم عمر رضي الله عنه بالصبر واليقين ، لا بالصوم والصلاة »[1] .

ولقد أفاض الترمذي في هذا المعنى في كثير من كتبه ورسائله بما لا يحتاج إلى المزيد منه ، ويكفي أن نشير إلى مدى الأهمية التي يعلقها على النيات والإرادات من اعتباره أن الأعمال ـ على وجه العموم ـ توضع في الخزائن ليوم العرض ، أما النيات فتعرض بين يدي الله تعالى ، على حسب قوة القلب ، فيشرق عليها بأنواره ، وتعود هذه الأنوار على القلوب ، فيحتظي كل منها بحسبه ، ويقرب من الله بحسب ذلك « فالأعمال في الخزائن ، والقصد في الأعمال والنيات والإرادات بين يدي الله سبحانه وتعالى ، فكل إنما يصل قصده وإرادته ونيته إلى الله على حسب قوة قلبه ، كالرماة ، كل منهم إنما رميته على قدر قوة ساعده ومنعة قوسه وصلابة سهمه ..... فكذلك القلوب على قدر اليقين وفضل الإيمان الذي فيها تنفذ إرادته ونيته إلى الله عز وجل ..... فالمحتظي من أي نور احتظى فقربته على قدر ذلك »[2] ومع ذلك فأعمال الصادقين والصديقين لا تصرف إلى الخزائن إلا بعد العرض والوقوف بين يدي الرب ، فأما عمل الصادق فإنه أشرق « بنظرة

---

(١) الصلاة ومقاصدها ص ٥٤ ، وعلل العبادات ١٧١ أ ـ ب .

(٢) الصلاة ومقاصدها ص ٤٤ ، وعلل العبادات ١٧٠ب - ١٧١ أ .

الرب ، وازداد به نورًا ، وتأدى ذلك النور إلى قلب عامله ، وتلك النية الباقية في القلب ، فازداد وقوي ، ومن أجل ذلك قيل : نية المؤمن خير من عمله » . وأما عمل الصديق فيرفع « ويوقف به مقام العرض ، فينظر إليه الرب ، ويوقع عليه نظرته ، حتى يملأ نورًا من النظرة التامة الشافية ، ثم يؤمر به إلى الخزائن ، فيرجع ذلك النور الزائد إلى قلب هذا الصديق على قدره من التمام والتضعيف على نظرة الصادقين » . وأما عمل السابق المقرب من خاص الأولياء فيرفع « ويوقف به في مقام العرض ، فيتناوله الرب ، فيضعفه بين يديه ، فينشره ويطويه ، النشر ليستنير ، والطي للطراوة ، فلا يزال بين يديه إلى يوم القيامة ، حتى ينشره يومئذ طريا قد ربا وزكا ونما »[1] .

ويتبين من هنا أن الأعمال هي الأعمال ، ومع ذلك فيختلف نصيب كل من نظرة الله وأنواره حسب القلب الذي صدر عنه ، إن كان قلب صادق أو صديق ، أو قلب سابق من المقربين ، ويبدو تفاوت القلوب خلف كثير من مظاهر العبادة كالذكر والشكر ، بل وفي الصلاة والصوم وغير ذلك ، ونضرب لذلك مثلاً بقول الحكيم عن الشكر « والشكر هو انفتاح عين القلب حتى يرى صنائعه ، فالشكر هو رؤية صنعه في الأشياء ، ثم في باب الشكر طبقة أعلى من هذه ، ولهم مرتبة أعلى من هذه المرتبة ، وهي رؤية تدبيره وربوبيته حين ظهر الصنع ، ثم في الشكر مرتبة أعلى من هذه المرتبة ، وهي رؤية تدبيره في المقادير حين ظهرت الربوبية ، ثم فيه مرتبة أعلى من هذه ، وهي رؤية ما جرى في الذكر قبل التدبير ، ثم فيه مرتبة أخرى أعلى من هذه ، وهي رؤية المشيئة ، والقسمة للحظوظ ، ثم فيه مرتبة أعلى من هذه المراتب كلها ، وهي رؤية العلم في الفردية والأحدية ، فهذه كلها حقيقة الشكر ، والشاكرون على درجاتهم ، كلما جاوزت رؤيتهم درجة فمشوبتهم على قدر رؤيته في درجته »[2] وهي ملاحظات دقيقة تستر خلفها ملاحظات

---

(١) غرس العارفين ص ٦١ ب - ٦٢ أ.

(٢) المصدر السابق ص ٨٨ أ ـ ب .

أكثر دقة ولطفًا ، ولكنها ـ على كل حال ـ كافية لوضع صورة إجمالية عن مدى التفاوت بين المقامات التي تحل فيها القلوب .

وإذا أردنا أن نأخذ صورة عن الخصائص العامة التي تخص طبقة دون أخرى فلننظر مثلاً إلى الصادقين والصديقين ، والخصيصة العامة التي نلاحظها على الصادقين أنهم قائمون على أنفسهم بالجهاد ، وأن نفوسهم قائمة معهم ، لم يقهروها بعد ، فهي تأخذ حظوظها صراحة أو خلسة . سماحًا أو اغتصابًا ، أما الصديق فقد حيل بينه وبين نفسه ، فلم يعد لها عليه سلطان ، فهو لا ينظر إليها ، ولا يلتفت نحوها ، ولا يعير مشيئتها أي عناية ، وتبدو هذه الخصيصة في كثير من المظاهر ، فالصادق يعمل على جهد ، و« يتحرز من الآفات ، ويطلب الصدق في الأمور ، وينفي عنه ما أفسده بجهده ، فقد أخلص على قدر طاقته !! ... والصديق اكتسى خلع الحبيب من الرأفة والرحمة والمحبة ، فصارت النفس أسيرة المحبة ، فلانت بلين الرأفة ، ورطبت برطوبة الرحمة ، وحليت بحلاوة المحبة ، فإذا عمل الطاعة وجد حلاوتها من هذه الخلع » « فالعارفون ـ أي الصادقون ـ أخلصوا ولم يصفوا ، والصديقون جمعوا الأمرين جميعًا ، لأن الإخلاص من المعرفة ، والتصفية من المحبة » ولذلك تثقل نفس الصادق عن العمل حتى يجرها جرًا ، وتطيب نفس الصديق بالعمل فتخف فيه ، وتسرع إليه دون أن يجد لذلك جهدًا ، ولا نصبًا »[1].

ثم إن الصادقين يحتاجون إلى نية في كل أمر ، لأن نفوسهم معهم ، وقلوبهم لا تزال مع الأشياء ، فإذا عملوا عملاً احتاجوا أن يوجهوه إلى الله تبارك وتعالى، فيحتاجون إلى نية عند مبتدأ كل أمر « وتفسير النية نهوض القلب بعقله ومعرفته إلى الله ..... والنيات على قدر طهارة القلوب وسعيها إلى ربها » أما إذا كان الإنسان عند ربه قد تخلى من حصار النفس « فمحال

---

(١) الفروق ص ٨٢ ش .

أن يقال نهض ، لأنه عنده ، ولا يحتاج إلى نية ، فهو في كل أموره عند ربه»[1] ومعنى ذلك أن الصديق لا شغل له بنفسه ولا بالأشياء حوله ، وإنما شغله بالله وحده ، فكل أعماله إنما هي لله ، وهو حاضر بقلبه دائمًا بين يدي الله ، فلا يقال عن عمله إنه يحتاج إلى توجيه ونية مستأنفة ، لأنه منذ بدايته وحتى نهايته لم يكن للنفس عليه سبيل، بل كان متمحضًا وخالصًا لله وحده، فكيف يحتاج إلى استئناف نية ، وإذا صعب قبول هذا الأمر فلنضرب له مثلاً بالمصلي، فهو يبدأ صلاته بالنية والتكبير ، فيصبح قائمًا بين يدي الله، وتصبح كل أقواله وأفعاله ـ بعد ذلك ـ متوجهة إلى الله ، فلا يحتاج إلى نية مستأنفة عند كل فعل أو قول من أفعال الصلاة وأقوالها ، لأنها تمت بين يديه .

كذلك حياة هذا الصديق القائم بين يدي الله ، لا يكاد يغفل عن موقفه فكل أعماله وأقواله متوجهة تلقائيًا إلى ربه ، وهو بذلك متنعم طيب النفس لا تفترق عنده حال عن حال ، لأن كل أحواله أصبحت لله ، ولم يعد له منها شيء .

فإذا نظرنا إلى كل منهما وهو يتناول من هذه الدنيا لوجدنا الاختلاف واضحًا بينًا ، فبينما يأخذ الصادق منها أخذًا ما يصيره عدة لنوائب نفسه ، وما يتحرز به من آفاتها في وقت الحاجة ، ويخزن لها كي لا تفتقر ، إذ بالصديق ينظر إلى تدبير الله ، فلا يأخذ ، وإنما يتناول ما أعطى ، فيصير له خازنًا من خزانه ، يمسكه على نوائب الحق ، وقلبه معلق بتدبيره ، فهو يتناول من الله ، ويمسك لله ، ويعطي لله[2].

وبذلك يمكن تفسير موقف الصحابة الذين كانوا يملكون من الثروات والأموال ما يثير العجب ، فنفوسهم قد خلت من شهوة هذه الأموال ، وهم إنما كانوا يمسكونها لله ، فإذا نابت نائبة الحق أنفقوها في سبيل الله بغير مبالاة ، فهذا أبو بكر يتصدق بكل ماله ، وهذا عمر يتصدق بنصف ماله ،

---

(١) باب في شأن النية ص ١٨٢ ب .

(٢) جواب من كتاب الري ص ١٦٨-١٦٩ .

وهذا عثمان يجهز جيش العسرة ، وعبد الرحمن بن عوف يتصدق بقافلته ، وكثير غير ذلك مما يقف برهانًا واضحًا أنهم لم يكونوا يمسكون هذه الأموال لأنفسهم إلا لله ، بل كانوا خزنة من خزان الله ، يتناولون منه له .

أما الصادقون فيأخذون ما يعللون به أنفسهم ، ويقطعون به حجتها وفتنتها، فإن النفس إذا أحرزت قوتها سكنت واطمأنت .

لا غرو إذن أن يختلف قبول الأعمال ودرجاتها عند الله وإن اتفقت مظاهرها بين الصادقين والصديقين ، تبعًا لاختلاف القلوب ، وقوة إيمانها ، ونفاذ أنوارها ، وصلة هذه القلوب بالنفس ومشيئاتها ، ولعل أوضح مثل لذلك ما ذكره الحكيم في كتاب الفروق عن قول سلمان وابن مسعود رضي الله عنهما ، يقول : « وكذلك جاء الأثر عن الشيخين من أصحاب رسول الله ﷺ : سلمان وابن مسعود رضي الله عنهما ، فقال سلمان : أحب الموت اشتياقًا إلى ربي ، وأحب الفقر تواضعًا لربي ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أحب الموت لأني لا أدري ما ينزل بي فأخاف على ديني ، وأحب الفقر لأنه أخف لحسابي . فقول سلمان رضي الله عنه قول صديق ، وقول ابن مسعود رضي الله عنه قول صادق ، ذاك لحظه إلى ربه في الأمرين ، وهذا إلى نفسه في الأمرين »[1] فالفرق بين القولين هو اللحظ إلى النفس بالنسبة للصادق ، حيث يخاف على دينه ، ويشفق على نفسه من فوت الثواب وحلول العقاب ، كما يخشى على نفسه من شدة الحساب ، أما قول الصديق فلحظه إلى ربه ، دون نظر إلى ما يعود إلى نفسه من وراء ذلك ، فقد ذابت نفسه وتلاشت ، ولم يعد لها ذكر في هذا المقام ، وهذا هو مقام الصديقين ، لذلك كانت مقاومهم في البيت المعمور ، في العسكر حول العرش في منازل القربة بينما كانت مقاوم الصادقين في بيت العزة في السماء الدنيا .

فإذا أردنا الخصيصة التي يختص بها السابقون المقربون لوجدنا أن نفوس الصديقين معزولة قد حيل بينها وبين قلوبهم ، لأنها لا تزال قيد التصفية

---

(١) الفروق ص ٨٤ ى .

والتنقية من الآفات والعيوب ، أما المقربون فقد أصبحت نفوسهم سلمًا لهم ، قد ماتت مشيئتها ، وأصبحت موافقته لمشيئة ربها ، وقد أصبحوا لذلك أحرارًا ، ويصعب التفريق فيما عدا ذلك بين الصديقين والمقربين ، لأن الأعمال بين كل من الطبقتين لا تأثير للنفس فيها ، هؤلاء بسبب أنها معزولة ، وأولئك بسبب أنها أصبحت موافقة ، فرفع عنها الحصار . لذلك يشتركون في مقاماتهم ، لكن الفرق يبدو في منازلهم ودرجاتهم خلال هذه المقامات ، فالصديقون في العسكر ومنازل القربة ، والمقربون في درجات الوسائل « فالمؤدون لفرائض الله هم الواصلون لحقائق الأمور ، فإذا كان مؤديًا للفرائض على هذه الصفة نال القربة ، والقربة لها منازل ، ثم يتخطاها إلى الوسائل ، فأهل الوسائل في ملكه ، ومن دونهم في معسكر ..... ولا تكون نافلة حتى تؤدى الفريضة ، فإذا نال القربة قوي على أداء الفرائض »[1] فإذا قوي على أداء الفرائض استطاع أن يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه ، فيكون سمعه وبصره ، ويستطيع أن يرقى بعد ذلك إلى الدرجة العظمى ، درجة المنفردين في ملك الملك ، يقول الترمذي للمفتونين : « حرام على قلوبكم الوصول إلى منازل القربة حتى تؤدوا الفرائض على ما وصفت ، ثم حرام على قلوبكم بعد ذلك درجات الوسائل حتى تميتوا مشيئاتكم لمشيئته ، ثم حرام على قلوبكم بعد ذلك الدرجة العظمى في ملك الملك بين يديه حتى تنقطع عن قلوبكم مشيئة الوصول إليه »[2].

والمقربون في قبضة الله يستعملهم كيف يشاء « ثم من وراء الصديقين خاصة الله ، وهم أهل الشفاعة في القبضة ، فإذا صاروا إلى هذه المنزلة اكتسوا من خلع محبة الله لهم ، فصاروا مستعملين في قبضته يتقلبون في أمورهم وأعمالهم »[3].

---

(١) منازل القربة ص ٩ ب - ١٠ أ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠ ب .
(٣) الفروق ص ٨٢ ش .

في ثنايا هذه الطبقات تتفاوت المقامات ، فليس كل أصحاب طبقة على مستوى واحد ، بل إننا لو دققنا النظر لوجدنا أن هنالك تفاوتًا قائمًا في المقام الواحد ، ولكن هذا التفاوت في داخل المقام الواحد قد يدق إلى درجة يصعب ويطول تصويرها أو التعبير عنها إلا عند أصحابها ، ولذلك يكتفي بذكر المنازل والمقامات كعلامات بارزة في مراحل السير في طريق الولاية إلى الله تعالى .

وعلى الرغم من أن صورة المقامات لم تكن قد تبلورت واستقرت واتخذت تحديدا واضحًا في هذا العصر الذي كان فيه الحكيم الترمذي - أو هذا على الأقل ما يبدو لنا من خلال مراجعاتنا لما وصل إلينا من أقوال رجال هذا العصر ، وأن اصطلاح « المقامات » لم يكن قد استقر تمامًا بالنسبة لها ، فإننا نرى في تصوير الحكيم لهذه المقامات محاولة باكرة وناضجة ، بل إنها لتلقي ضوءًا قويًا على الصورة التي تحددت لها بعد يعطيها لونًا وتحديدًا جديدًا .

أما أن هنالك مقامات ، فهذه نتيجة تابعة لسعي القلوب إلى الله ، وقطعها إليه مرحلة بعد مرحلة « فإن أقامها (لا إله إلا الله) ، خرج من الظلم ، وهو من المطيعين لديه ، ثم لأهل الدرجات فيما وراء ذلك سعى إلى الله بالقلوب »[1] و« أهل مراتب الدين لهم ألوية ، وأهل التخليط لا مراتب لهم ولا ألوية »[2] وقد ضربنا - من قبل - مثلاً لهذه الدرجات أو هذه المقامات كيف يكون مظهرها في وقت الشكر ، ونحب أن نضرب هنا مثلاً بالذكر ، فلعله أن يكون أكثر وضوحًا « قال : فذكر الله على وجوه ، وكل ذلك ذكر له ، فأول ذكره : التوحيد ، والثاني : ذكره بالأمر والنهي ، والثالث : ذكره عند كل نعمة في الدين والدنيا ، والرابع : ذكره بالمنة ، والخامس : ذكره بالتدبير ، والسادس : ذكره بالمحبة ، والسابع : ذكره بالوله ، والثامن : ذكره بالشوق

---

(١) شفاء العلل ص ١ ب .

(٢) مسألة لأهل مراتب القيامة ص ٥٧ أ .

إليه ، والتاسع : ذكره بالأفضال ، والعاشر : ذكره بالمرعى على الدوم . فكل ذاكر على حسب ذكره يرجع إليه ثمرة ذكره ، ومن ذلك الوجه يذكرونه»[1].

في هذا المثال نستطيع أن نلمح مظاهر تحديد المقامات بوصفه لما يكون عليه ذكر الذاكر حسب ما هو فيه من مقام ، أما ذكره بالتوحيد فهو الخروج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، وأما ذكره بالأمر والنهي فذلك هو مقتضى الإيمان أو مقتضى الحق ، وأهل هذا الذكر ليس لديهم من طبقات الأولياء أو من مقاماتهم شيء ، ولكن تبدأ بعد ذلك الدرجات على ما عرفنا ، ثم الوجوه الثمانية التالية موزعة بين الطبقات الأربعة حتى يكون آخرها من يذكر بالمرعى على الدوام ، وهم المنفردون من الأولياء في ملك الملك بين يديه ، فالمقامات هنا موزعة على الإجمال ، ودون ملاحظة الفارق بين الطبقات .

وللحكيم تقسيم آخر للمقامات يتبع فيه الآية الكريمة ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:١١٢) فيذكر سبعة مقامات ، لكنه يعلق عليها بأنها خاصة بهؤلاء الذين يتعاملون مع ربهم معاملة التجار ، وأن هنالك طائفة أخرى «رموا بأنفسهم بوسع اليدين ، وملء الساعدين من خلف أقفيتهم ، ثم لم يلتفتوا إليها ، وألقوا بأيديهم إلى الله سلما»[2].

فإذا أردنا أن نعرف صورة واضحة لمقامات الطبقة الأولى من الأولياء ـ وهم الصادقون ـ عند الحكيم لوجدناه قد أفرد لها رسالة خاصة بها بعنوان «منازل العباد من العبادة» ويبدو من مطلعها أنه كانت تثور بين الناس مناقشات في شأن هذه المقامات وفي تقعيدها ، وإرساء قواعدها على أسس

---

(١) غرس العارفين ص ٩٣ ب تحت عنوان «درجات الذكر ومراتب الذاكرين».

(٢) غرس العارفين ص ٥٢ ب — ٥٣ أ ومنازل العباد من العبادة .

من الشرع ، ويقول الحكيم : «أما بعد فإنكم سألتموني وصف منازل العباد من هذا الدين ، وأن أذكر لكم على كل منزلة منها من طريق الكتاب المنزل والخبر المأثور ما يكون شاهدًا على وصفي» ثم نمضي معه في هذه الرسالة ، فنجده يسرد لنا سبعة مازل يفصل بينها ، ويصف كل واحد منها ، لكنه لا يعطي لها كلها أسماءها ، بل يبدأ بالتوبة ، ثم بالزهد ، ثم بعداوة النفس ، ثم بأهل المحبة والقربة ، ثم بقطع الهوى والتطهير منه ، وهذه هي المنازل التي أعطى لها أسماءها ، أما المنزلتين الأخيرتين فقد ذكرهما بالوصف ، ولعلنا نستطيع أن نعطي لهما اسمين من وصفه لهما ، هما : الخشية ، ثم الحرية ، لأنه يصفهما بقوله : «وأما المنزلة السادسة فهم الذين وصفهم الله في تنزيله فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٧) .....» وأما المنزلة السابعة فهم قوم لما أوثقوا الهوى وهم منه على وجل نظر الله إليهم ، وقد استفرغوا مجهودهم في ذاته فأحبهم، وصح لهم تفويضهم إليه ؛ فكفاهم مئونة الهوى ، وبلغوا غايتهم من التطهير من الهوى ، فتجلى لهم من عظمته ما صعق الهوى ، وانذكت الشهوات ، فصارت كالهباء المنبث تفرقًا وتلاشيًا» وقد وصف أهل المنزلة السابعة ـ من قبل ـ بقوله : «إن لله عبادًا قطعوا هذه العقبة صارخين إليه ، مستغيثين به بين جور الهوى وحياته فيهم ..... فقد يبست عروقهم ، وسكنت حركاتهم ، وانقطعت طلباتهم ، ووقفوا بين يدي مليكهم ، ينتظرون نوائب أموره ، يمرون في أسرع من السهم ، في بشر وطلاقة من أهوائهم ونفوسهم التي قد ماتت ثم حييت ، فهم أحرار كرام محرري الرحمن ، حررهم من عبودة الهوى» .

وعندما ندقق النظر في هذه المنارل ـ أو في هذه المقامات ـ نستطيع أن نجد بيتها اتساقًا وتناسبًا ما عدا المنزلة الرابعة التي أطلق عليها «منزلة أهل المحبة والقربة» فمن المفروض ـ حسب ترتيب النظرية عند الحكيم ـ أن منازل أهل القربة لا ينالها الصادقون إلا بعد أن ينتقلوا إلى مرتبة الصديقين ، فينزلون حينئذ منازل أهل القربة ، حيث يقومون في مقامات أخرى تعدهم

لدرجات الوسائل ، فوق أن وجودها بين منزلة عداوة النفس ، وهي المنزلة الثالثة ، ومنزلة قطع الهوى ، وهي المنزلة الخامسة ، لا يوحي بأن هذا هو مكانها الطبيعي ، ولسنا نستطيع أن نجزم بأن عدم الاتساق البادي في وضع هذه المنزلة راجع إلى الحكيم الترمذي نفسه ، أو إلى كثرة تداول رسائل الحكيم بين أيدى النساخ ، مما جعل بعض الفقرات تسقط أو توضع في غير وضعها الصحيح ، والقارئ لهذه الرسالة الصغيرة يمكنه أن يلاحظ مثل هذه الأحوال بسهولة .

لكننا يكفينا في هذا المجال أن نوضح أن الحكيم الترمذي قد وضع للسالكين على طريق الصدق سبعة مقامات ، قد تتفق أو تختلف مع ما استقر عليه الأمر بعد ذلك عند غيره من الصوفية ، ولكنها تتناسب تمامًا مع ترتيب نظريته في الولاية ، وأن نلاحظ أن المنزلة السابعة هي نفس الوصف الذي يصف به الصادق عندما ينتهي من بذل غاية مجهوده ، ويبسط يد المضطر إلى الله فينقله من مرتبة الصادقين إلى مرتبة الصديقين ، ولذلك نجده مقامًا شاملاً يشتمل في ثناياه على كافة المراتب والمقامات التالية له في طبقة المقربين والمنفردين .

وعندما نقارن هذه المقامات عند الحكيم بما نجده ـ مثلاً ـ في كتاب اللمع لأبي نصر السراج نجد اختلافًا كبيرًا ، فبعض ما نجده عند الحكيم على أنه منازل أو مقامات ، نجده عند السراج على أنه أحوال ، كالمحبة والخشية ، وكثير من المقامات عند السراج لا نجده هنا عند الحكيم ، ولعل ذلك راجع إلى أن السراج يحصر المقامات في هذه السبعة ، ويريد أن تكون شاملة قدر الإمكان ، فنجده يقسم كل مقام بين طبقات السالكين الثلاث ، وهم الصادقون والصديقون والمقربون ، ويعبر عنهم السراج بعبارات مختلفة كالعوام والخواص وخواص الخواص ، فيقول في مقام الورع مثلاً : « فالأول ورع العموم ، والثاني ورع الخصوص ، والثالث ورع خصوص الخصوص »[1] كما يقول في مقام الزهد : « والزهاد على ثلاث طبقات ،

---

(١) ص ٧١ .

فمنهم المبتدئون ..... وفرقة منهم متحققون في الزهد ..... والفرقة الثالثة علموا وتيقنوا .....»[1] وهكذا فالمقامات عند السراج واحدة لكل الطبقات، ولكنها تختلف بالكيفية من طبقة إلى أخرى ، وقد رأينا عند الحكيم كيف يختلف الذكر والشكر في كيفيته من درجة أو مقام إلى درجة أو مقام آخر ، لكن الترمذي يخص الصادقين بهذه المقامات السبع ، ولا شك أنها تختلف من مريد إلى مريد حسب قوة حاله وما يتوارد على قلبه من العطايا والأنوار الإلهية ، وهو في ذلك متسق مع نفسه ، متوافق مع منطق مذهبه[2].

وإذا انتقلنا معه إلى طبقة أعلى وجدنا مقامات الصديقين والمقربين متداخلة ، لا يسهل التفريق بينها ، وقد يرجع ذلك ـ كما لاحظنا من قبل ـ إلى أن الأمر هنا قد أصبح خاصًا بالقلوب وحدها ، لأن النفوس قد أصبحت في معزل ، ولا سلطان لها ، إلا أننا نعرف أن هذه المنازل بالنسبة للصديقين هي منازل القربة ، بينما هي للمقربين درجات الوسائل ، والحكيم الترمذي يسردها معًا دون فاصل مميز بين ما يكون من شأن الصديقين ، وما يكون من شأن المقربين ، فيقول فيمن شارف مرتبة المنفردين « فإنما فتح له في الغيب الأعلى حتى لاحظ ملك الملك ، بعد أن قوم ، ثم هذب ، ثم أدب ، ثم نقى ، ثم طهر ، ثم طيب ، ثم وسع ، ثم عوذ ، فتمت ولاية الله له ، ويصلح في المجلس الأعلى من مجالس الأولياء بين يديه ، يناجيه كفاحًا ، ويلج مجالسه سماحًا »[3] كما يقول عنه كذلك « وأما ولي الله فرجل ثبت في مرتبته (مرتبة الصديقين) وافيًا بالشروط ، كما وفى بالصدق في سيره ، وبالصبر في عمل الطاعة ، واضطراره ؛ فأدى الفرائض وحفظ الحدود ، ولزم المرتبة (مرتبة القربة وهي مرتبة الصديقين) حتى قوم ، وهذب ، ونقى ،

---

(١) ص ٧٢-٧٣ .

(٢) قارن هذه السبع بما نقله أبو نعيم في الحلية جـ ١٠ ص ٦٤ عن يحيى بن معاذ الرازي يقول : الدرجات التي يسعى إليها أبناء الآخرة سبع : التوبة ، ثم الزهد ، ثم الرضا ، ثم الخوف ، ثم الشوق ، ثم المحبة ، ثم المعرفة .

(٣) ختم الأولياء ص ٣٢٧ .

وأدب ، وطهر ، وطيب ، ووسع ، وزكى ، وشجع ، وعوذ ، فتمت ولاية الله بهذه الخصال العشر ، فنقل من مرتبته إلى مالك الملك ، فرتب له بين يديه ، وصار يناجيه كفاحًا »[1] ونلاحظ في هذا النص أن الولي يمر بهذه المقامات أثناء لزومة المرتبة ، فهل أدرج طبقة المقربين في طبقة الصديقين أهل المرتبة ؟ واعتبرهما طبقة واحدة تمر بهذه المقامات العشر ، حتى تنتقل من المرتبة إلى ملك الملك مباشرة ؟ ويمكن حينئذ اعتبار هذه المقامات العشر بالنسبة للصديقين منازل القربة ، وبالنسبة للمقربين درجات الوسائل ، وهي الأملاك التي يعبرها المقرب ملكًا ملكًا حتى يصل إلى ملك الملك بين يديه ، ويكون الاختلاف بين الطبقتين بالنسبة لهذه المقامات هو اختلاف في المستوى ، تبعًا لقوة القلوب .

ولكن النص التالي يبين أن هذه المقامات تكون بعد لزوم المرتبة ، والوفاء بشرطها ، فهي مقامات المقربين ، لا مقامات الصديقين ، « قال قائل : صف لنا الخصال العشر التي تمت ولاية الله بها من التقويم والتهذيب ، وسائر الخصال التي ذكرت .

« قال : نعم ، أقامه (الله تعالى) في المرتبة ، على شريطة اللزوم لها ، فلما وفَّى بالشرط ، ولم يبغ عملاً في محل القربة نقله منها إلى ملك الجبروت ، ليقوم بجبر نفسه ومنعها بسلطان الجبروت حتى ذلت وخشعت ، ثم نقله منها إلى ملك السلطان ليهذب ، فذابت تلك العزة التي في نفسه ، وهي أصل الشهوات ، فصارت بائنة عنها ، ثم نقله منها إلى ملك الجلال ليؤدب ، ثم نقله منها إلى ملك الجمال لينقى ، ثم إلى ملك العظمة ليطهر ، ثم ملك الهيبة ليزكى ، ثم إلى ملك الرحمة ليوسع ، ثم إلى ملك البهاء ليربى ، ثم إلى ملك البهجة ليطيب ، ثم إلى ملك الفردانية ليفرد »[2] فهذا النص صريح وواضح ، وليس فيه احتمال آخر ، ولذلك فهو أولى أن يعتمد عليه في بيان وجهة نظر الحكيم ، وعلى ذلك فهذه المقامات التي يعبر عنها بملك

---

(١) ختم الأولياء ص ٣٣١-٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٣-٣٣٤ .

الجبروت ، وملك السلطان ، وملك الجلال ..... وسائر الأملاك الأخرى ، هي مقامات المقربين ، أو هي درجات الوسائل ، فيها تكون المجالس والنجوى والحديث لأهلها ، أما الصديقون فهم في منازل القربة ، يشرفون من قرب على هذه المقامات ، فيحنون إليها ، وينظرون إلى ما خلفوا وراءهم من عقبات ، فلا يرون أنفسهم أهلاً ، فيمكثون في حالة سكون انتظارًا لما تخرج لهم به المشيئة ، وما يرد به الإذن ، وهذا هو معنى وفاء الشرط ، ومعنى لزوم المرتبة ، وقد يكون في هذا النص مع مقارنته بالنصوص الأخرى إشارة إلى أن بدايات هذه الأملاك هي مقامات للصديقين ، بينما نهاياتها هي مقامات المقربين .

وأيًا ما كان الأمر ، فهذه المقامات إنما هي بحسب الأملاك التي يمر بها الولي ؛ والأملاك هي أملاك أسمائه تعالى وصفاته الحسنى ، لذلك لا ينبغي أن نأخذ ذكر المقامات هنا على أنه محصور في عشر ، لأن أسماءه وصفاته تعالى ليست محصورة في هذه العشر ، « فرب ولي مقامه في أول ملك ، وله من أسمائه ذلك الاسم ، ورب ولي مقامه التخطي إلى ملك ثان وثالث ورابع ، فكلما تخطى إلى ملك أعطى ذلك الاسم »[1].

وهنا قد يتبادر إلى الذهن أن عضمة الله لا نهاية لها ، وأنه ـ لذلك ـ ما من مقام ينزله الولي إلا ويجد بعده مقامًا ، فالمقامات لا تتناهى . وقد قال بعض الناس بهذا في عصر الترمذي ، وأجابهم الحكيم بشيء من القسوة ، مبينًا أن الله هو الظاهر والباطن ، وأنه إذا كانت كمالات الله تعالى لا تتناهى ، فإن البشر لا يدركون منها إلى ما يظهر به على قلوبهم ، فإذا وصلوا إلى الباطن توقفوا . « قال له قائل : فهل للقلوب منتهى ؟ فإن ناسًا يقولون : إنه لا منتهى للقلوب ، لأن القلوب تسير إلى ما لا منتهى له ، فكل ولي يزعم أنه قد انتهى إلى مقام لا يتقدمه أحد فهو مخطئ ، ومن أين يبلغ أحد عظمة الله حتى يكون للقلوب منتهى ؟

---

(١) ختم الأولياء ص ٣٣٣-٣٣٤ .

« قال : بحق أقول لك ، هذا قول أحمق صاحب كلام ومقاييس يتفكر في نفسه بأشياء ، ويتوهمها ، ثم يقيسها من تلقاء نفسه ، فأحذرك أن تصغى إليه ، فإنه ينطق عن لسان الشياطين »[1] ..... « وحظوظ المحدثين ، وهم خاصة الأولياء ملاحظة تلك الصفات ، وإشراق نور تلك الصفات على قلوبهم وفي صدورهم ، ولذلك قال [تعالى] ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ (الحديد:٣) فهل الظاهر إلا ما ظهر على القلوب ؟ وإنما يظهر بصفاته على قلوب خاصة أوليائه ، فإذا انتهت الصفات [و] صار إلى الباطن الذي لا يدري فقد استقر القلب ».

فالمقامات معلومة ، وعددها متناه ، ولتدرج القلوب في هذه المقامات نهاية تصير إليها ، نعم إن كل مقام في نفسه لا منتهى له ، لكن القلوب تنتهي إلى مقام لا تستطيع أن تتجاوزه بعد ذلك ، لأن وراءه مما بطن ، فلا يمكن مجاوزته بحال .

وهذا المقام الذي تنتهي عنده المقامات ، هو مقام الواحد الفرد حيث تنقطع الصفات ، وينقطع الكلام والعبارات ، والمقصود بذلك أن الولي حين يصل إلى هذا المقام لا يعود لديه إدراك لشيء ولا شعور بشيء ، ولا ملاحظة إلى شيء ، بل يكون الله وحده في وحدانيته وفردانيته هو كل شيء . فهل يستطيع العبد أن يصل بعد ذلك إلى شيء ؟[2].

وينبغي أن نتساءل هنا : أليس الوصول إلى الله هو غاية الولي ؟ وماذا بقي بعد الوصول إلى مقام القربة ، واتخاذ مجالس الحديث والنجوى في ملك من هذه الأملاك التي أشار إليها؟؟ إن الحكيم يبين في وضوح ـ في نصوصه السابقة ـ أنها ولا شك مجالس المقربين إلى الله ، يتناولون فيها هداياهم ، ويرفعون فيها نجاواهم ، إلا أن كل ولي ينال قربته من مجلس الملك الذي

---

(١) ختم الأولياء ص ٣٣٤-٣٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص٣٣٦ .

هو فيه ، فهو لم يدرك باقي الأملاك ، ولم ينل قرباتها ، ولم يصل ـ بالتالي ـ إلى الله فردًا ، وإنما وصل إليه من باب صفة من صفاته الحسنى ، وما يزال الولي يرقى من صفة إلى صفة ، ومن ملك إلى ملك ، حتى يصل إلى الله فردًا وراء كل هذه الصفات ، وهذا هو الولي المنفرد الذي يجلس في ملك الملك بين يديه يناجيه كفاحًا ، ويلج مجلسه سماحًا كما يقول الحكيم .

أما الأحوال فلم يفرد الحكيم لها بحثًا خاصًّا بها كما فعل بالنسبة للمقامات على الرغم مما نجده في ثنايا كتبه مما يتصل بهذه الناحية ، ولعلها لم تنل عنده من الأهمية ما يجعلها جديرة بأن تفرد بالبحث ، لكنه يعبر عنها بالعطايا والأنوار في كثير من الأحيان ، ويخلطها في أحيان أخرى بالمقامات ، وهي ـ على كل حال ـ تعين صاحبها على تخطي المقامات ، والترقي في الدرجات ـ أشبه ما تكون بالنفقة التي يبعثها أمير المؤمنين لرجل من رعاياه بعث إليه ليتخذ منه وليًّا له وخاصة ـ فينبغي للعبد أن يحول بين نفسه وبين أن تفترص هذه الأحوال وهذه العطايا لتجني من ورائها لذة دنياوية « لأن العطاء هو نفقة ، وإذا أسرف في النفقة لحقه الغرم »[1].

وهو يرى أن مزج هذه الأحوال بأضدادها ، وعدم الانفراد بجانب واحد من أحد أزواجها خير لصاحبها ، وأعون له في طريقه ، ويعلق على بعض أقوال يحيى بن معاذ بقوله كان يحيى رجلاً من أولياء الله ممن له حظ في هذا الأمر ، ولكن الله عز وجل فتح له في الغيب من ملك الجمال ، وملك البهجة مقرون بملك الجمال ، فكان إياه يلاحظ ، وعنه ينطق ، وكذلك الشيوخ الذين صحبهم ، وصاحب هذا المحل الأنس غالب على قلبه ، والمأنوس منبسط ، ويخرجه انبساطه إلى الإدلال ، فإن لم يعصمه الله ويؤيده سقط »[2] ويعبر عن ذلك في مقام آخر بالنسبة للخشية والمحبة ، والهيبة

---

(١) مكر النفس ص ٤١ ب ٤٢ ب .

(٢) ختم الأولياء ص ٤٠٣ .

والأنس بقوله « فلو ترك [الله العبد] مع الخشية لانقبض وعجز عن كثير من أموره ، ولو تركه مع المحبة وحدها لاستبد وتعدى ، لأن النفس تهيج ببهجة المحبة ..... ثم يرقى إلى مرتبة أخرى وهي الهيبة والأنس ، فالهيبة من جلاله ، والأنس من جماله ، فإذا نظر إلى جلاله هاب ، وإذا نظر إلى جماله انبسط وطاب ، فلو تركه (مع الجلال) لعجز عن أموره كثوب ملقى ، أو جثة بلا روح ، أو تركه (مع الجمال) لجاشت نفسه وتعدت »[1].

كما يبين أن دوام الحال مما لا تحتمله النفوس ، لذلك ينقطع الحال رحمة من الله بعبده ، وإن اضطرب لذلك ، كما تفعل الأم بقطع الثدي عن طفلها عندما تعرف أنه اكتفى ، وأن الزيادة قد تفسده فلا يحتملها[2].

ولقد لاحظنا من قبل كيف يستعمل الحكيم عدة أوصاف للطبقة الواحدة كما يستعمل أوصاف كل طبقة بالنسبة للطبقة المجاورة ، فطبقة الصادقين هي طبقة العباد والزهاد وعمال الله والمقتصدين والعارفين ، وطبقة الصديقين هي طبقة الصادقين والعارفين والعبيد والمقربين ، وطبقة المقربين هي طبقة الصديقين والعارفين والعبيد والسابقين والمنفردين ، وهكذا ، لكننا نستطيع أن نعرف الطبقة المقصودة بوصف من هذه الأوصاف حسب الخصائص التي عرفناها عن كل طبقة ، ومقارنتها بما سيق له الوصف .

وهنالك أوصاف لم أتعرض لها بعد ، آثرت أن أؤخرها حتى تتضح معالم هذه الطبقات ، وحتى يمكن بعد ذلك أن نعرف أي طبقة يعنيها الحكيم بهذه الأوصاف ، تلك هي : البدلاء والنجباء ، والأمناء ، فنحن حين نقرأ له مثلاً « إنما العبودة الائتمار بأمره والتناهي عن نهيه ، والعمل لمرضاته ، والاتباع لرضوانه ، وهذه الرابعة أصعب الأشياء وأعلاها درجة ، فلا ينال اتباع رضوانه إلا النجباء السابقون المقربون فأما الخصال الثلاث فقد

---

(١) ختم الأولياء ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢) جواب كتاب من الري ص ٢٠٠ وص ١٤٢ ب - ١٤٣ أ من مخطوط ليبزج .

نالها الصادقون والمتقون»[1] نحكم ـ ولا شك أن طبقة المقربين هي المقصودة بوصف النجباء . وإذا قرأنا له قوله «فإذا تخطوا هذا المحل إلى ملك الملك وصار المرعى بين يديه ..... وهناك صاروا في القبضة واستوجبوا الثبات ، وصاروا أمناء الله وخاصته ، فهم أهل القبضة ، والذين يستعملهم»[2] حكمنا بأن طبقة المنفردين هم الموصوفون بوصف الأمناء ، لكننا نقرأ له ما يشير إلى أنهم أيضًا نجباء حيث يقول : «والأولون الكبراء قوم نجباء عن فردانيته ينطقون ، وإلى وحدانيته ينظرون ، وفي قبضته يتقلبون ، وباستعماله في الأحوال والأمور ينظرون»[3] فهذه الخصائص هي خصائص المنفردين الذين وصلوا إلى الله فردًا ، وقد لقبهم هنا بالنجباء ، كما لقبهم ـ من قبل ـ بالأمناء . كما نرى في النص التالي أنه يلقب طبقة المقربين بالأمناء ، وقد عرفنا ـ من قبل ـ أنه لقبهم بالنجباء «قال أبو عبد الله رحمه الله : أما ما ذكرت من قولك إذا لم يحتج إلى إذن في الأمور ، وأن الأربعين الذي يسمون البدلاء لا يعملون إلا إذن ، وسألت عن هؤلاء الأقوياء من هم ؟ . قال أبو عبد الله رحمه الله ، هؤلاء أمناء الله تعالى في أرضه ، فإن العبد لا يكون أمينًا ما دامت النفس تأخذ من الأمور نصيبها ، والأمين كالعبد المأذون له في التجارة ، والمفوض إليه ..... والأربعون هم الذين حول العرش مقاومهم ، وهم بعد في المكان حتى إذا خرجوا من المكان كانت مقاومهم في ملك الملك بين يديه ، فهم الأقوياء»[4] فالمقربون الذين ارتقوا من مكان العسكر حول العرش ، وأصبحوا لا يحتاجون إلى إذن في الأمور

---

(١) الفروق ص ٨٨ ى .

(٢) مكر النفس ص ٤٨ أ .

(٣) شفاء العلل ص ٧ أ . والكلام على معنى لا إله إلا الله ص ٩٤ ب من مجاميع طلعت بدار الكتب المصرية .

(٤) جواب كتاب من الري ص ١٦٣ - ١٦٤ .

هم الأمناء ، وقد سماهم من قبل بالنجباء ، بينما أطلق لقب البدلاء على طبقة الصديقين الذين يلزمون المرتبة ، ولا يصدرون عنها إلا بإذن .

ولقد لمحنا خلال هذه النصوص إشارات لمعنى التسمية بالنجباء والأمناء ، وفي النص التالي يظهر معنى التسمية بالبدلاء حيث يقول : « ثم لما قبض الله عز وجل نبيه ﷺ صير في أمته أربعين صديقًا ، بهم تقوم الأرض وهم آل بيته ، فكلما مات واحد منهم خلفه من يوم مقامه »[1] فالبدلاء إنما سموا بدلاء باعتبار أنه كلما مات منهم واحد استبدل به آخر ، فيكون بدلاً ، ويكون الجميع بدلاء . هؤلاء الأربعون البدلاء هم أهل بيت النبوة ، لا باعتبار النسب ، ولكنهم أهل بيت الذكر ، فقد « بعث الرسول ﷺ لإقامة ذكر الله وليبوئ له مستقرًا ، وهو الذكر الخاص الصافي ، فكل من آوى إلى ذلك المثوى فهم آله » ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ « أهل بيتي أمان لأمتي ، فإذا ذهبوا أتاهم ما يوعدون » .... ولو كان النبي عليه السلام يعني به أهل بيته في النسب لكان يستحيل أن لا يبقى منهم أحد ، فيموتوا عن آخرهم ، وقد كثر الله عددهم حتى لا يحصون » وقد بين الحكيم كيف صار هؤلاء البدلاء أمانًا للأمة بقوله « وإنما صار هؤلاء الأربعون أمانًا للأمة لأن بهم تقوم الأرض ، وبهم يستسقون الغيث ، فإذا ماتوا أتاهم ما يوعدون »[2].

من هذه النصوص نستطيع أن نرى أن البدلاء هم طبقة الصديقين ، وأنهم أمان للأمة ، بهم تقوم الأرض ، وينزل الغيث ، وأن عددهم يظل ثابتًا ، كلما نقص بموت واحد منهم خلفه آخر حتى يظل العدد أربعين إلى أن يشاء الله .

لكن هذه المعاني كلها نجدها عند الحكيم في نص آخر منسوبة إلى طبقة أخرى ، حيث يقول[3] « ولا يعلم أن لله عبيدًا اختصهم لنفسه ، وأحلهم ذروة

---

(١) ختم الأولياء ص ٣٤٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٤٥ .
(٣) المسائل التي سأله أهل سرخس ص ٢٨٣ .

جبل الإيمان ، وفتح لهم باب النجوى ، وجعلهم جلساءه ، وهو يروي الحديث أنه قال لموسى صلوات الله عليه وسلامه «أنا جليس من ذكرني» ولا يعرف ما الجليس ، ولو عرف ما أنكر انقطاع الوسوسة ، أولئك جلساء الله وذاكروه وقرة عين الرسل عليهم السلام ، وأهل بيت محمد ﷺ ، ورضي عنهم ، بهم تقوم الأرض ، وتمطر السماء ، وهم أربعون رجلاً ، كلما مات منهم رجل هيأ الله لمكانه من يقوم مقامه» فهنا أوصاف البدلاء ـ على ما عرفناه ـ منسوبة لطبقة متصفة بخصائص المقربين أصحاب المجالس والنجوى ، ولا بد لنا الآن أن نربط بين ما قد يبدو هنا على أنه اضطراب أو خلط بين هاتين الطبقتين ، طبقة الصديقين وطبقة المقربين ، وبين ما لاحظناه من قبل مثل ذلك بشأن المقامات الخاصة بهما ، وقد قلنا في تفسيره إن مقامات إحدى الطبقتين هي مقامات الطبقة الأخرى مع اختلاف في المستوى ، أو إن بداية هذه المقامات من شأن طبقة الصديقين ، بينما نهاياتها من شأن طبقة المقربين .

وهذا التوافق في موقفي الحكيم أبان عن توافق وتلاؤم في تفكيره نفسه ، بحيث لم نستطع أن نقبل أن الأمر غامض أو متناقض لديه أو أنه يرى بغير وضوح مما يجعل خصائص الطبقتين تضطرب بين يديه فيعزو لإحداهما ما للأخرى عن غير تمييز أو قصد .

وقد أرى أن مفتاح هذا الموقف هو في نظرته للمجذوبين أولياء المنة ، فإنهم من أول جذبهم يحلون في المرتبة دون شرط ، فيمرون بمقامات الصديقين ، وينالون في نفس الوقت خصائص المقربين ، لأنهم لا شرط عليهم يلزمهم الوفاء به ، كالصديقين من أولياء الصدق ؛ فيكونون ـ على هذا الأساس ـ بدلاء في مرتبة الصديقين ، ولكنهم قائمون في مقامات المقربين ، أما الصديقون من أولياء الصدق فهم بدلاء مرتهنون بما اشترط عليهم من

لزوم المرتبة وعدم مغادرتها بغير إذن ، وعلى هذا الأساس نمضي بالنسبة لبقية الألقاب ، فأولياء الصدق والإنابة الذين نالتهم منته من باب الرحمة لا يستطيعون اللحاق بأولياء الجذب والجباية الذين نالتهم منته من باب المشيئة إلا إن خرجت لهم المنة ـ أيضًا ـ من باب المشيئة ، فالسالك على طريق الصدق يظل دائمًا أدنى مستوى ، وأبطأ وصولاً ممن سار على طريق المنة ، فهو في مرتبة الصديقين قد يكون بدلاً ، لكنه لا ينال مقامات المقربين إلا بعد أن يفي بشرطه ، والمجذوب في مقام الصديقين ينال لقب البدل كما ينال مقامات المقربين ، لأنه لا شرط عليه . فإذا انتقلنا إلى مرتبة المقربين نال صاحب الجباية مقامات المنفردين فكان من النجباء والأمناء ، أما ولي الإنابة فلعله ـ إذا اقتضت المشيئة ـ أن يكون من النجباء وأن يرقى إلى طبقة المنفردين فيكون ـ أيضًا ـ من الأمناء . وبذلك نستطيع أن نفسر قوله[1] ، وإن الأربعين الذين يسمون البدلاء لا يعملون إلا بإذن ..... والأربعون نفوسهم معهم ، فلا يعملون بغير إذن ، وإن تخطى أحد منهم في أمر بغير إذن فقد سقط» فهؤلاء من الصديقين أولياء الإنابة . فإذا قرأنا له قوله[2] «وأما ما ذكرت أنك رأيت المجتهدين في أعمال البر لم يبلغوا ، ورأيت من لم يجتهد ذلك الجهد وقد بلغ ، فذاك لصحة باطنه بلغ ، والمجتهد لفساد باطنه لم يبلغ ، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ : إن بدلاء أمتي لم يبلغوا ولم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة ، إنما دخلوا برحمة الله ، وسلامة الصدور ، وسخاوة الأنفس ، والنصيحة لله تعالى ، والرحمة لجميع المسلمين ، وبتقوى الله عز وجل .....» فإننا نلحظ هنا روح وصفه لأولياء الجباية الذين بلغوا بصحة الباطن دون جهد أو جهاد على ما عرفناه

---

(١) جواب كتاب من الري ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) المسائل التي سأله أهل سرخس ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

في أولياء الإنابة ، فالبدلاء هنا من أولياء الجباية ، والبدلاء هناك من أولياء الإنابة .

وهذه الألقاب : البدلاء ، والنجباء ، والأمناء ، تحمل في طياتها طابعًا خاصًا يميزها عن سائر الألقاب الأخرى التي كان بحثنا محصورًا فيها ، ذلك لأن الألقاب الأخرى ، كالصادقين والصديقين والمقربين والعارفين والعباد والعبيد ، وما شاكل ذلك ، إنها تحمل أوصافًا تخص الولي في نفسه أو بحسب علاقته بربه ، ودرجته من قربه ، أما هذه الألقاب الجديدة التي نبحثها الآن فإنها تحمل معانى جديدة تضاف إلى تلك المعاني السابقة ، فالبدل أمان للأمة به تقوم الأرض وينزل الغيث ، وهو أكبر من السلطان ، لأن السلطان يستمد نفوذه من ظل الله : أما البدل فيستمده من نور الله[1].

أما النجباء والأمناء فهم فوق ذلك كله خلفاء الأرض وأئمة الهدى ، والأحرار الكرام، والقائمون بالحجة المفوض إليهم في الأمور، فهم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم على الأمة « أولئك الأقلون عددًا ، الأكثرون عند الله قدرًا ، وأرواحهم معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله تعالى في بلاده ، وأمناؤه في عباده ، وهم أئمة الهدى الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه فقال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٨١) وهم أولو الأمر الذين جعلت طاعتهم واجبة على الخلق ، فقال عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء:٥٩) ..... فكما جعل طاعته في طاعة رسوله ، فضيلة له على غيره من الرسل ، فكذلك جعل طاعة هؤلاء الخلفاء واجبة على الأمة فضيلة لهم على غيرهم من الأولياء ، وهم خواص الأولياء ، ورجال الله في أرضه ، الذين يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة لمكانهم وقربهم من الله عز وجل »[2].

---

(١) إثبات العلل ص ٦٠ أ .

(٢) علم الأولياء ص ٥٥ أ ـ ب .

كل هذه الأوصاف لأنهم قد أصبحوا في قبضته ، فهو يستعملهم ، وهم يفهمون عنه تدبيره في خلقه ، فيقومون به في كل أمر ، وكيف لا يكونون كذلك وهم خاصة الخاصة ، كادوا يساوون الأنبياء ، وقد احتظى كل منهم من النبوة على قدر درجته وقربته ، فمنهم من له ثلثها أو نصفها أو أكثر من ذلك «وله من القربة على قدر ذلك ، وله من الحديث على قدر ذلك ، وله من السكينة على قدر ذلك»[1] وهذه المكانة المرموقة التي تنحسر دونها الهمم لا يبلغها إلا الأقلون عددًا كما يقول عنهم الحكيم .

ويمكن لنا بعد ذلك أن ندرك أن وضعهم بين العباد ليس هو وضع عدم المبالاة أو الانعزال ، بل هو وضع عملي فعال ، ولكن على طريق الله ، وبمقتضى إرادته ومشيئته .

* * *

(١) انظر علم الأولياء ص ٤٢ ب ، وأبواب في صفة العلم ص ٤ ب ، وختم الأولياء ص٣٤٧ .

obeikandl.com